

الحياة العملية والنقرب التفكير الغربى

للأستاذ محمد ثابت الفندى

كيف نفهم الحقيقة ؟

نكاد نفهم جميعاً من لفظ « الحقيقة » معنى واحداً وإن اختلفت ألقاظنا فى التعبير عن ذلك الفهم . فأننا إذا سألت أى إنسان فى مصر سواء أكان ممن له حظ من المعارف أو لم يكن عما يفهمه من هذا اللفظ ، فإنه سيجيبك بلاعناء ولا تفكير بعبارة تقرب من هذه « الحقيقة » إنما هى تمثيل المعانى الذهنية للأشياء التى فى خارج الذهن تمثيلاً مطابقاً لها »

فنجن نقول : « إن الأرض تدور حول الشمس » حقيقة من الحقائق لأن المعنى الذى نفهمه من هذه العبارة نعتقد أنه يمثل تماماً ما يحدث فى الخارج من دوران الأرض حول الشمس . ونقول : إن زوايا المثلث تساوى قائمتين ، وإن الأجسام تتجاذب ، وإن المعادن تتمدد بالحرارة ، وإن الله موجود ، نقول عنها حقائق أيضاً لأننا نعتقد أن هذه الأقوال تطابق تماماً ما يجرى فى الخارج وتمثل الواقع أتم مماثلة .

فمعار الحقيقة عندنا هو مطابقة أفكارنا وتصوراتنا للخارج وتمثيلها للواقع . فإذا لم تمثل أفكارنا شيئاً من الأشياء الواقعية فأنا نقول عنها إنها وليدة الوهم والخيال ، ونعتبرها باطلة وليست حقيقية . فنحن نعد باطلا قول من يقول : بأن الجن موجود ، وإن السماء تمطر ذهباً ، وإن الأرض تقوم على قرن ثور ، لأننا نعتقد أن هذه التصورات لا تمثل أشياء موجودة بالفعل . إذن فالمعيار الذى نزن به الأفكار فنميز بين الحق والباطل إنما هو المماثلة والمطابقة للخارج ، إذ الحقيقة عندنا هى العكس التى تمثل شيئاً موجوداً ، والباطل ما لم يكن كذلك . هكذا نفهم نحن الحقيقة .

خطأ هذا الفهم

إلا أن الشوط الواسع الذى قطعه الفكر الإنسانى فى مرآتى العلوم والمعارف ، وأسلوب الحياة التى يحياها الإنسان فى هذا العصر ، وانقلاب الأذواق والمشارب والملابس والنظم السياسية والاجتماعية والعبهناعية وغيرها ، كل ذلك استتبع انقلاباً خطيراً فى أسلوب التفكير والنظر الى الحقائق ، فانقلب بذلك المعيار الذى نركن إليه فى تقرير الحقيقة وتميزها عن

الباطل . وليبان ذلك نستحسن أن نحصر كلامنا في صنف من الحقائق لا يختلف فيها اثنان لوضوحها وجلالتها مثل الحقائق الرياضية .

نحن جميعاً نعتقد مثلاً : أن المستقيم أقرب بعد بين نقطتين ، وأن من نقطة واحدة خارج مستقيم ما لا يمكننا أن نقيم من المستقيمت الموازية له إلا مستقيماً واحداً . وأن مجموع زوايا المثلث الثلاث يساوي قائمتين .

هذه بعض الحقائق التي تبرهنها هندسة إقليدس ، نكاد نعرفها جميعاً ونجزم بصحتها ونسخر من تعيب عنه لبداهتها ، ونصفها دائماً بأنها « حقيقة » لماذا ؟ لأننا نعتقد اعتقاداً جازماً بأنها أفكار تمثل الواقع أتم تمثيل ، إلا أن الاعتقاد بحقيقتها يزول إذا علمنا : -

أن رياضيات أنشطين تقول بأن المنحني - لا المستقيم - هو أقرب بعد بين نقطتين . وأن هندسة لوباتشفسكي (١٨٣٥) تبرهن على أنه من نقطة واحدة خارج مستقيم ما يمكن أن نقيم عدداً لا يتناهى من المستقيمت المتوازية ، بينما تبرهن هندسة ريمان (١٨٥٤) على أنه لا يمكن أن يقام مستقيم البتة من مثل تلك النقطة . وأن زوايا المثلث تساوي أقل من قائمتين وفقاً لهندسة لوباتشفسكي ، أو أكثر من قائمتين وفقاً لهندسة ريمان .

مما تقدم نخلص بأن المسائل الرياضية - وهي مثل أعلى للحقائق - أكثر من حل واحد ، وكل حل منها يدعى صاحبه أنه الحق الذي لا خداع فيه . فهندسات إقليدس ولوباتشفسكي وريمان ورياضيات أنشطين كلها تدعى أنها كذلك ، ولكن أى واحدة منها تمثل الموجودات في أنفسها ؟ إذا لجأنا إلى هذا المعيار الذي اعتدناه لنوازن بينها ، فأتينا لنصل إلى نتيجة حاسمة ، ذلك لأننا لن نعرف الموجودات في أنفسها ، إذ لو عرفناها لما تعددت الهندسات ، وإنما نحن نعرف تلك الموجودات عن طريق الأفكار والتصورات التي نخلقها عقلاً لنفهمها بها ، فتلك الهندسات وسائر التصورات العلمية ، إنما هي خلق واختراع عقلي وليست تصويراً وتمثيلاً للأشياء ، فإذا نظرنا إليها من حيث هي تمثيل صادق ومطابق للأشياء ، فأتينا لنصل إلى نتيجة في معرفة أنها المحقة وأنها المبطله ، لذلك يجب أن نضع معياراً جديداً لمعرفة الحقيقة غير المعيار الذي تعودنا استعماله .

معيار الحقيقة الجبرير هو العمل

والآن ما هو المعيار الجديد الذي يجب أن نستعمله تمييز الحقائق ؟
لأننا نعلم أن فهمه يجب علينا أن نذكر أن أسلوب الحياة في هذا العصر - وخاصة في أوروبا وأمريكا - يجعلنا ننظر إلى الناس والأشياء من وجهة عملية بحتة . فنحن الآن إنما نقدر قيم

الناس والأشياء بقدر ما تدره من تقع وما تجيء به من فائدة في الحياة العملية ، فالنجاح في الحياة العملية هو الذي يرفع الناجح ويعطيه قيمة ممتازة ، والفشل فيها يسلبه كل قيمة له . ومن ثم يتضح أن منطق الحياة الحاضرة يحتم علينا أن ننظر إلى « العمل » على أنه معيار سليم صادق في تقدير القيم أياً كانت .

ولم ير مفكرو العصر الحديث بدءاً من تطبيق هذا المعيار على الأفكار والمعاني وكل ما يكون معارفنا الانسانية ، فما كان منها مؤدياً إلى نتائج مفيدة في الحياة العملية يجب أن نعترف له بقيمة خاصة فنعتبره حقيقة ، وما لم يكن مؤدياً إلى نتيجة ما ، يجب أن تسلب عنه كل قيمة فنعتبره باطلاً .

والأفكار هي قبل كل شيء اختراعات نخترعها كاختراع الآلات لاستخدامها والاستفادة منها . وهي في أنفسها ليست حقيقية ولا باطلة ، وإنما هي تكسب إحدى هاتين الصفتين بتطبيقها واستعمالها في الحياة العملية ، فإن أنتجت فائدة انتقلت إلى عالم الحقائق ، وإن لم تنتج فائدة ما ظلت في عالم البطلان . ويشبه شلر ، الفيلسوف الانجليزي ، أفكارنا قبل إنزالها إلى ميدان العمل برشحي البرلمان . فالمرشح البرلماني لا يصير عضواً حقيقياً حتى يخوض معركة الانتخابات ويحرز فيها نجاحاً كافياً يؤهله للدخول في عالم النيابة ، كذلك الفكرة المرشحة إلى أن تصير حقيقة ، تظل فكرة مرشحة حتى تخوض معركة العمل وتحرز فيها نجاحاً كافياً ، عند ذلك فقط تصير الفكرة عضواً في عالم الحقائق . والنجاح في الحياة العملية معناه أن الفكرة التي نخترعها تزيد في سلطتنا على الأشياء ، وتبسط من نفوذنا عليها ، وتدر علينا فوائد مادية أو أدبية ، وبالجملة تملأ فراغاً في حياتنا لم يكن لئلاً بدونها .

وإذا أردنا أن نجعل ما تقدم في عبارة موجزة فيمكننا أن نقول : إن أفكارنا كلها إنما هي اختراعات ككل الاختراعات الآلية ، وهذه الاختراعات لا تصير لها قيمة ما أوحقيقة ما حتى تقوم بخدمات عملية نفيسة ، لذلك يقول منشيء هذا المذهب العملي وايم جيمس : « إن امتلاكك لمعان حقيقية معناه امتلاكك لآلات نفيسة للعمل » (ص ١٩٥ من كتابه « المذهب العملي ») .

المذهب العملي والحقائق العلمية

وهذا المذهب العملي يتقدم لتقرير كل الحقائق من أي نوع كانت حتى الحقائق العلمية ، فليست الحقيقة العلمية عند أنصار هذا المذهب اكتشافاً لأمم موجود ، وإنما هي اختراع لأمم مفيد نافع يؤكد نجاحنا في الحياة ويمد من سلطتنا على الأشياء . فمثلاً في علم الفلك ، كان يقال : إن الشمس تدور حول الأرض ، ويقال اليوم : إن الأرض تدور حول الشمس .

فأى الفكرتين أصدق وأحق ؟ يقول هنرى بوانكاريه ، العالم الرياضي الفرنسي « إننا لا نستطيع أن نقوم بتجربة لاثبات صحة إحدى الفكرتين بحيث تصبح إحداها مثلاً للواقع والأخرى لا نصير كذلك ، فالفكرتان من هذه الوجهة متساويتان ، ولكننا إذا نظرنا إليهما من جهة النتائج العملية المترتبة عليهما فإن الفكرة الأخيرة تفوز بلقب « الحقيقة » وذلك لفائدتها في تفسير جملة من المشكلات مثل اختلاف الليل والنهار ، وتعاقب الفصول ، والكسوف والكسوف ، والمد والجزر ، الى غير ذلك مما لا قبل للفكرة الاولى على تفسيره . فالفكرة الأخيرة مفيدة عملياً ولذلك فهي حقيقة . والأمر كذلك عند بوانكاريه في حسم الخلاف بين الهندسات التي مر بنا ذكرها . فليست إحدى هندسات اقليدس ولو بشفسكي وريمان حقيقة في نفسها باعتبار أنها تمثل الواقع ، فهي كلها من هذه الوجهة متساوية . ولكننا إذا نظرنا إليها من الوجهة العملية ، أى من حيث النتائج المفيدة التي نستمدّها من كل منها ، فأنا سنجدها أن هندسة اقليدس تفضلها جميعاً لأنها أكثر ملاءمة وبساطة وسهولة ، ويمكن ان يقال مثل هذا في سائر الحقائق العلمية .

ومما تقدم يرى القارىء أن المعيار الجديد لمعرفة الحقائق هو « العمل » فليست الحقيقة العلمية شيئاً نتلقاه من الخارج وتخضع له عقولنا ، وإنما هي شيء نخترعه من لدنا ونخضعه نحن لعملنا وفائدتنا وخيرنا ، فإن أفادنا حق للاختراع أن ينبت بأنه حقيقي .

المذهب العملي والحقائق الربنية والافراطية

معلوم أن أهم ما جاءت به الأديان فكرة « الله » وأهم مبدأ في الأديان فكرة « الحرية » ولقد تحبّطت المذاهب الفلسفية في تقرير هاتين الفكرتين تحبّطاً ليس عليه من مزيد . فنذّر التاريخ الفلسفي نشب الجدال عنيماً بين المذاهب المادية والمذاهب الروحية حول فكرة « الله » وآخر ما وصلت اليه المذاهب المادية أنها تقول: إن الله غير معروف وإن الكون إنما تكون بفعل القوى الطبيعية وحدها ، أما الروحية فتثبت بقوة تعدل قوة المادية أن الله موجود وأن العالم لم يكن إلا بفعله وخلقّه ، فالخلاف بين المادية والروحية عميق ، ولا يمكن أن يفض إذا رجعنا الى معيارنا العتيق في تمييز الحقائق ، لأن التجربة التي أحدثت العالم شيء مضى لا سبيل إلى إعادته لتثبت من هذا الاحداث ، أكان بفعل الله أو بفعل القوى الطبيعية وحدها ؟ فالماضية والروحية من هذه الجهة متساويتان ، ولكننا إذا نظرنا إلى « النتائج العملية » المترتبة على كل منهما فسيفض الخلاف وترجح كفة الروحية بلا ريب ، ذلك لأن المادية تنبئنا بأن النهاية التي سيصل إليها الكون وفقاً لتطور القوى الطبيعية هي الموت والفناء والعدم ، وهذا ما ياباه رجاء الإنسان وما لا ترضاه آماله الطامحة إلى الخلود ، بينما الروحية تنبئنا بأن العالم قد يزول

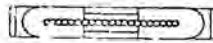
باصطدام الكواكب أو بتفقدان الحرارة، ولكنه مع ذلك لن يصيبنا مكرهه لأن الله الذي قدر هذا الزوال يظل يرعانا ويحقق آمالنا. فمن الوجهة العملية البحتة نجد أن الروحية مذهب منشط ومرفه ومطمئن للنفس على المستقبل السعيد الذي تعدنا به الأديان، فهي حقيقة إذن.

وكما تقدم المذهب العملي لحسم النزاع بين المادية والروحية فأثبت وجود الآلهة لضرورة عملية بحتة، كذلك هو يتقدم لحسم النزاع بين مذهبي الجبرية والحرية فيثبت أننا أحرار غير مجبورين ولا مسيرين في أفعالنا وذلك لضرورة عملية أيضاً. فإذا نظرنا إلى المذهبين من حيث النتائج فأنا نجد أن الاعتقاد بالجبرية مثبط للهمم قاتل للأرادات مضعف للآمال ميئس من الحياة، في حين أن الاعتقاد بالحرية مشجع للهمم منشط على العمل موفر للإنسان أسباب حب الحياة والجهاد فيها، فالحرية حقيقة أيضاً.

فالعمل هو الذي يعطى فكرتى الله والحرية قيمتهما الممتازة، فإذا نظرنا إليهما مجردين عنه فيصيران من الألفاظ الفارغة التي لا معنى لها البتة. هكذا يدعى المذهب العملي أنه ينسر كل الحقائق العلمية ودينية وخلقية بمعيار « العمل » فبدلاً من النظر إلى الحقائق في أنفسها ينظر إليها من حيث قيمتها العملية. وهذا انقلاب في أسلوب التفكير خطير.

محمد ثابت الفندري

ليسانسيه في الفلسفة



الدعوة المقارنه والبعث والطيرانه

(بقية المنشور على الصفحة رقم ٩٣١)

وأما في الاسلام فقد ورد ذكر الميزان في الكتاب العزيز في مواضع كثيرة الدلالة على الدقة في العدل في « يوم الحساب » بحيث تكون قيمة المرء على قدر عمله لاعلى قدر دعاويه . ففي سورة الأعراف في الآية الثامنة : « والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون » وفي سورة الانبياء في الآية السابعة والاربعين : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين . »

عبد الرحمن شريفة